

خطاب كارل ماركس إلى والده ١٨٣٧

كتاب "صفحات خالدة من الأدب الألماني من البداية حتى العصر الحاضر"
نقلها إلى العربية وقدم لها: مصطفى ماهر
نقله من الكتاب إلى نص إلكتروني أحمد عوف

مقدمة المترجم

درس كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) في برلين العلوم والسياسة والفلسفة والتاريخ، وفي عام ١٨٤٣ انتقل للإقامة في باريس وهناك بدأ تعاونه مع فريدريش انجلس. وما لبثت الحكومة البروسية أن طالبت الحكومة الفرنسية بنفيه بسبب كتاباته الشيوعية، فانتقل إلى بروكسل، ثم طرد منها كذلك في عام ١٨٤٨، فسافر إلى لندن حيث عاش في ظروف سيئة من الفقر والحرمان. وفي لندن كتب ماركس كتابه العلمي والفلسفي الكبير "رأس المال" الذي ظهر الجزء الأول منه في عام ١٨٦٧ ثم ظهر جزءان آخران، بعد وفاته، في عامي ١٨٨٥ و ١٨٩٤. وكان ماركس متصلاً بقيادة الحركة العالمية في الغرب كلهم تقريباً.

والخطاب الذي نورد منه جزءاً فيما يلي، هو الخطاب الوحيد الذي وصلنا من أيام طلب ماركس العلم في الجامعة، وهو في الخطاب يسجل تقريراً عن عامه الأول في الجامعة وهو في التاسعة عشرة من عمره. والخطاب يكشف عن الناحية الإنسانية الخالصة في ماركس (وييني Jenny التي يتحدث عنها هي خطيبته وزوجته فيما بعد)، ويكشف كذلك نقطة البداية في تطوره الفكري وهي انصرافه عن المثالية التأملية العارية عن الفائدة، وبحثه عن فلسفة تقوم على أساس من العلم وتوجيه من الخبرة.

“برلين في ١٠ نوفمبر ١٨٣٧

أبي العزيز

هناك لحظات في الحياة تقوم كعلامات الطريق فتدل على أن وقتاً قد مضى، وتشير في الوقت نفسه بالتحديد إلى اتجاه جديد.

وينبغي لنا في مثل هذه النقطة الانتقالية، أن نتأمل بعين ثاقبة كعين النسر ما قد مضى من ماضي وما هو واقع، حتى نصل إلى الوعي بمكاننا الحقيقي. بل إن تاريخ العالم نفسه يحب هذا النظر إلى الوراء، والتدبر فيما يطبعه في أحيان كثيرة بطابع الرجوع إلى الوراء أو الوقوف حيث هو، بينما هو يلقي بنفسه في كرسي وثير^[1]، ليفهم نفسه، وليشبع بالعقل عمله، عمله الذي هو عمل العقل.

إن الإنسان الفرد ليميل في مثل هذه اللحظات إلى الشاعرية، لأن كل تحور هو تارة ختام قصيدة، وتارة افتتاحية قصيدة جديدة كبيرة تسعى في ألوانها الزاهية العائمة إلى أن يكون لها كيائها، ولكننا مع ذلك نود أن نقيم نُصباً يخلد الخبرة التي مررنا بها في حياتنا، حتى نستعيد في إحساسنا المكان الذي ضاع منها في العمل، وهل يمكن أن تجد لها مكاناً أكثر قدسية من قلب الوالدين، ذلك القلب الذي هو أكثر القضاة حِلماً، وأكثر المواسين إخلاصاً، والذي هو شمس الحب التي تدفئ بناها أعمق ينابيع مساعينا. وهل هناك أمام الشيء المكروه المذموم من سبيل إلى الاعتدال والغفران أفضل من سبيل التحول إلى مظهر حالة ذات ضرورة جوهرية. وكيف يمكن تخليص اللعب المقيت الذي تسترسل إليه المصادفة وضلال الفكر من لوم القلب المتقلب؟

وإذا أنا ألقيت في ختام سنة عشتها هنا نظرة على ما كان فيها من أحوال، لأجيب – يا أبي العزيز – على خطابك الذي يفيض بالود والحب والذي أرسلته من مدينة إيمس، فإنني أستمح لنفسي أن أعتبر أحوالي، كما أعتبر الحياة عامة، تعبيراً عن

فعل عقلي يمتد أولاً في كل النواحي إلى علم وفن وأحوال خاصة ثم يتخذ بعد ذلك شكلاً.

عندما رحلت عنكم، انفتح أمامي عالم جديد، عالم الحب، وعلى وجه التحديد عالم الحب المنتشي بالحنين، والمجرد عن الأمل . حتى إن الرحلة التي حملتني إلى برلين، والتي كان من المتوقع لها أن تخلب لُبِّي إلى أقصى درجة، وتحفزني إلى التطلع إلى الطبيعة، وإلى إنكاء نار رغبة في الحياة في نفسي، تركتني بارداً، بل عكّرت مزاجي على نحو لافت للنظر، لأن الصخور التي رأيتها لم تكن أكثر وعورة وقوة من مشاعر نفسي، ولم تكن المدن الواسعة أكثر حياة من دمي، ولم تكن الموائد في المطاعم أكثر ازدهاماً واستعصاء على الهضم من أحمال خيالي، ولم يكن الفن في جمال بيّني.

فلما وصلت إلى برلين قطعت كل الروابط التي كانت قائمة حتى ذلك الحين، ولم أزر الناس إلا نادراً وكارهاً، وعكفت على العلم والفن أتعمق فيهما...

أما فيما يتعلق بالطريق الذي أسلكه يا أبي العزيز، فقد تعرفت حديثاً بالمعاون شميهينر الذي نصحني بأن أنتقل، بعد الفراغ من امتحان الحقوق الثالث، إلى ممارسة الشؤون القانونية، وهو ما يروقتني أكثر مما عداه، نظراً لأنني أفضل الحقوق على علوم الإدارة. وقد ذكر لي هذا الرجل أن محكمة مونستر العليا في إقليم فستفالن قد رفّته وكثيرين غيره في غضون ثلاثة أعوام إلى درجة معاون، وهو أمر لا صعوبة فيه مع الجد والاجتهاد، نظراً لأن الدرجات في فستفالن غير محدودة التحديد الجامد المأخوذ به في برلين وغير برلين. فإذا ما حصل الإنسان فيما بعد، اعتماداً على درجة معاون، على الدكتوراه، فإن إمكانية العمل أستاذاً بالجامعة خارج الهيئة تكون يسيرة، وهو ما حدث للسيد جيرتنر في بون، الذي ألف كتاباً متوسطاً عن كتب التشريع في جنوب فرنسا، ولا شهرة له فيما عدا ذلك إلا الانتماء إلى المدرسة القانونية الهيجيلية. ولكن، يا أبي العزيز، أليس من الممكن مناقشة كل هذه الأمور عندما نلتقي معاً؟ إن حالة إدوارد ومرض أمي الحبيبية، وتوعكك الذي

أرجو ألا يكون شديداً، كلها أشياء تجعلني أتمنى، أو أحس أنه من الضروري أن أعجل بالحضور إليكم. ولو لم أكن أشك في تصريحك وموافقك، لكنت الآن عندكم.

صدقني يا أبي العزيز، يا أبي الحبيب، ليست هناك نية أنانية تدفعني إلى ذلك (وإن كنت سأبتهج أشد الابتهاج عندما أرى بيني)، إنما تدفعني فكرة لا أستطيع التعبير عنها. إن تلك الخطوة لتعتبر من بعض الأوجه خطوة قاسية، ولكن حبيبتني الحلوة الوحيدة بيني قد كتبت إليّ بأن تلك اعتبارات تنهار أمام الوفاء بواجبات مقدسة.

إني أرجوك يا أبي العزيز، مهما يكن القرار الذي تتخذه ألا تُظهر أمني، ذلك الملاك الكريم، على هذه الورقة على الأقل. ففعل قدومي فجأة يشفي المرأة العظيمة الرائعة.

أما الخطاب الذي كتبتَه إلى أمني الحبيبة فقد كتبتَه قبل أن يصلني خطاب بيني الحبيب بوقت طويل، ولعل أكون، ولهذا السبب، قد أكثرت من الكتابة عن أشياء غير مناسبة، أو ربما غير مناسبة إلى درجة كبيرة جداً.

وعل أمل أن تتبدد السحب، التي تحيط بأسرتنا، شيئاً فشيئاً والتي حُرمتُ نعمة مشاركتكم في معاناتها، والبكاء منها، والتعبير، وأنا قريب منكم، عن عميق خالص مواساتي، وإثبات عظيم حبي، وهو ما لا أستطيع أن أعبر عنه في أكثر الأحيان إلا أسوء تعبير، – وعلى أمل أن تعفو عني، يا أبي الغالي، الحبيب أبداً، آخذاً في الاعتبار تكويني النفسي الذي رتمي تارة هنا وتارة هناك، فما أكثر ما يبدو القلب على سبيل الضلال، بينما العقل المناضل هو الذي يخدره ويذهله! – وعل أمل أن تسترد صحتك كاملة قريباً، فأضمك إلى قلبي وأنطق بكل ما يعتمل في نفسي.

ابنك الذي يحبك أبداً

كارل

لا تؤاخذني يا أبا على كتابتي التي لا تُقرأ، وعلى أسلوب الرديء، فالساعة الآن
الرابعة تقريباً، وقد احترقت الشمعة عن آخرها، وتعكرت عيناى، لقد تملكني قلق
حقيقي، ولن أستطيع التخفيف من هواجسي الثائرة إلا عندما أكون في قربكم
الحبيب.

أرجو أن تتكرم بتبليغ سلامي إلى بيني الحلوة الرائعة. ولقد قرأت خطابها اثنى
عشرة مرة، وكنت في كل مرة أكتشف سحراً جديداً فيه. إنه، في رأيي، ومن كل
النواحي، بما في ذلك الأسلوب، أجمل خطاب يمكن أن تكتبه امرأة.

[1] وثير : وطيء ، لين ، سهل

وثير: مِخْدَةٌ تُجْعَلُ عَلَى السَّرَجِ، صِفَةٌ مَشْبَهَةٌ تَدُلُّ عَلَى الثَّبُوتِ مِنْ وَثَرٍ